خديجة بنت خويلد

يَعودُ محمدٌ من رحلة الشام مُفْعَماً بالنشاط والسُرور، وقد أدرك أن للعمل قَدَاسة وشَرف . فقد رأى الناسَ هناك يُتاجرون ويعملون ، ورأى عمه يكد ويسعى من أجل لقُمة العَيْش . وطلب محمد من عمه أن يعمل، ولم تكن له خبرةٌ بالتجارة، كما أنه لا يملكُ مالاً ليتاجر به . ورأى فى رَعْى الغنم عملاً لا بأسَ به مثل فِتْيان قريش .

كان محمد يخرجُ بالغنم إلى المراعى خارجَ مكة فى الصباح، ويقضى سَحَابة النهار فى وادى أجْياد، يهشُّ على أغنامه الشاردة، ويقودها إلى أماكن العُشْب والعَبَل، ويسقيها من ماء الآبار، ويُريحها ساعة القَيْظ فى ظلال الشجر، أو تحت سقيفة من سَعَفِ النخيل ، وكان يجلس هو والفتى صاحبه يتناولان غداءهما ويتبادلان أطراف الحديث .

وتَوطَّدتْ العلاقةُ بين محمد وبين صاحبه الراعى الصغير، فقد

كان الفتى طيباً سَمْحاً على غير عادة بعض الرعاة .

وجد محمد فى هذه المهنة راحةً للنفس ، ومُتعةً للنظر برغم المشقَّة والجَلَد . كان محمد يتأملُ فى الكون من حوله ، وينظر إلى السماء ويُرْهفُ سمعه إلى تُغَاء الشِّياة ، وتَغْريد الطيور ، وحَفيف الشَجر . وكان يشعر بأن كل شىء حوله له جمالٌ وله رَوْعةٌ . وكان يعودُ بقطيعه عند المساء لينالَ عن عمله بعض القراريط يُنفقها على نفسه وبنى عمه . وفى المساء كان يُحَّدق فى السماء ويطيلُ التأمل فى النجوم والكواكب . وذات مساء ، طلب الفتى (محمد) من صاحبه أن يسَهْر على غنمه حتى يقضى فى مكة ساعاتٍ يلهو ويَسْمُر مع الفتْيان . وكانت عادة بعض أثرياء مكة أن يقيموا فى ديارهم حفلات للغناء والسَمَر .

ووافق صاحبه على أن يخرجَ هو يوماً آخر ليلهوا مثله فى مكة . وترك الفتى الشياة فى رعاية صاحبه ، وأسْرع الى مكة . وسمع غناءً شَجِيّاً وصوتَ معازف فسأل : ما هذا ؟

قالوا : هذا حَفْل عُرْس . تزوج فلانٌ من فلانة .

وجلس مع الفتيان ليُصْغى وينظر ، فغشيه النُّعاسُ فنام ، وانفضَّ

السامرُ ومضى الليلُ ، و الفتى نائمٌ ، وما أيقظه إلا حرُّ الشمس . فنهض يفرك عينيه ويتلفت حوله ويتذكر ما حدث له ، ثم يعودُ مُسْرعاً إلى صاحبه . فيسأله صاحبه : هِهْ . . إحْكِ لي ماذا فعلت؟ .

فيقول : ما فعلتُ شيئاً . . غَلَبنى النُّعاسُ فنمت حتى الضُّحى .

ويكبر الفتى ويصبح شاباً قوياً فتيّاً ذا سَمْتٍ حسَن ، ووجه وسيم ، وأخلاق كريمة . كان الفتى صادقاً فى قوله ، عفيفاً أميناً حتى لُقِّب بالصادق الأمين . وكان يُنزِّه نفسه عن ارتياد مجالس المجُوُن واللهَّو ، وكان لا يسجدْ لصنم ، ولا يؤمن باللات ولا بالعزى ولا بغيرهما من الأوثان ، وكان مع ذلك يشارك القوم حياتهم ، فيفرح لفرحهم ، ويحزن لما يصيبهم .

وذات عام نشبتْ حربٌ بين قريش وقبيلة هُوازن ، كان سببها أن رجلاً من قريش غَدَر برجل من هُوازن فقتله فى الأشهر الحرم ، وكانت هذه الحرب أربعَ سنواتٍ ، فُقِدَ فيها قتلى من قريش ومن هوازن ، وكان الصادقُ الأمين يشارك قومه فى هذه الحرب يرمى السهام مع الرماة . وانتهت بعد حين هذه الحرب التي سُميتْ «حرب

الفجار» بعد مفاوضات طويلة بالصُّلح بين قريش وهوازن على أن يدفع الجانبُ الأقل عدداً فى قتلاه ديَةً مقابل العدد الذى يزيد عن قَتْلى الجانب الآخر .

واجتمع رجالٌ من قريش بعد الصلح مباشرةً فى دار عبد الله بن جُدْعان ـ من أشراف قريش ـ وتعاهدوا جميعاً على نُصْرةِ المظلوم ، وأن يقفوا معه حتى يُرَدَّ اليه حَقُّه .

وشارك «الأمين» فى هذا الحلْف الذى سمى «حِلْفُ الفُضول» وكان عمره آنذاك عشرين عاماً .

كانت خديجةُ بنت خُوَيلد إمرأةً من قريش ذات شرفٍ ومالٍ ، وكانت تستأجر الرجال للخروج فى تجارتها مقابل بعض الربح .

وكان أبو طالب قد سمع أن خديجة تُعدُّ قافلة للتجارة فى رحلة الى الشام ، قال لابن أخيه «الأمين» تَعْلَمُ يا محمد أن العمل فى رعى الغنم لا يأتى برزقٍ وفيرٍ فماذا لو عملتَ بالتجارة .

قال محمد : كيف يا عمّ؟

قال : بلغنى أن خديجة تُرسل رجالاً يتاجرون لها فى الشام وهى تُعْدُّ الآن القافلة وستخرج بعد أيام ، هل أكلِّمها لك تُتاجر لها فى بضائعها؟

قال محمد : ما تَراهُ يا عمِّ.

فذهب أبو طالب الى خديجة وقال لها : هل لك أن تستأجرى محمداً فى تجارتك؟

فقالت بِبِشْرٍ : يا أبا طالب لو سألتَ ذلك لبعيد بغيض لفعلنا . . فكيف وقد سألته لحبيب قريب .

وعاد أبو طالب من عندها مسروراً ، وراح يُهنئ ابن أخيه ويخبره بما حَدَث ، وبأنها ستعطيه ضِعْفَ ما تُعطى أى رجلٍ من قريش من الأجر . وينهض أبو طالب وهو يقول : هنيئاً لك يا بن أخى . . هذا رزق ساقه الله إليك .

تأهَّبَ محمد للسفر بصُحبة مَيْسرة ـ الغلام ـ وفى الصباح انطلقتْ القافلةُ فى طريقها الى الشام .

كان الطريقُ طويلاً شاقاً ، ولكن الصُّحبةَ كانت طيبةً ومُمتعةً، ورأى ميسرةُ غَمامةً كانت تُظلل محمداً وحده من دون القافلة ،

وتحميه من وَهْج الشمس المحرقة . وتعجب . . كان ميسرة لَمَّاحاً ذكياً مُخلصاً، وشعر ميسرة أنه يسيرُ مع شابٍ كريمٍ على الله ، رفيع المكانة عندَهُ .

وصلتْ القافلةُ إلى سوق بِصْرَى ، وصُفَّتْ البضائعُ و أسرع الناس إلى السوق يبيعون ويشترون ، وكان محمد يأسِرُ الناسَ بلُطْف مُعاملته وصِدْقِ حديثه وبساطته . وباع محمد ما حمله من سلع إلى الشام ، وكان الربح وافراً . . واشترى من الشام سلعاً أخرى ليبيعها فى مكة . .

وبعد مدة عادتْ القافلةُ، وفى الطريق قال ميسرةُ : أتدرى يا محمد . . تاجرنا لخديجةَ مراتٍ كثيرةٍ فما ربحنا مثل هذا الربح .

كان محمدٌ سعيداً بهذا النجاح . . إنها المرة الأولى التى يخرج فيها للتجارة .

كانت خديجةُ تقفُ فى شُرفتها العالية تنتظرُ فى لهفة مَجيءَ القافلةِ، ولمحتْ على البُعد غُباراً ، ورأتْ الجِمال والبِغال مُحملة بالبضائع والسلع يتقدمها محمد وميسرة فتهلَّلَ وجهها بالبشر والفرحة .

التفتَ ميسرةُ إلى محمد وقال له : هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بما صنع الله لنا فى تجارتنا على وجهك .

وانطلق محمد حتى دخل مكة ، وكان الوقتُ ظهراً . وخديجةُ فى غرفتها العُليا تراه قادماً وحده على بعيره . وأخذتْ تُهيء نفسها لإستقباله حتى إذا بلغ الدارَ نزلتْ وهى تشعرُ بفرحةٍ غامرةٍ ، ورَحَّبتْ به كثيراً، واستمعتْ إلى كلامه . .

كان محمد يخبرها بحديثه العذب عن أحوال الرحلة ، وما حققه فيها هو وميسرة من ربح ، وعن البضائع التى أتى بها من الشام ليبيعها فى مكة وعن أحوال السوق والتجار هناك . وكانت خديجة تصغى إليه بانشراح وحُبٍ ، وتحس قلبها يخفق ، ويتفتح له .

وجاء ميسرة بعد حين ليحكى لها أحداث الرحلة ، وهى تسأله عن أحوال محمد وحياته .

ويقول ميسرةُ : سافرتُ يا سيدتى مع بعض الرجال فى التجارة فما رأيتُ رجلاً فيه من حُسن الخُلق وحُسن الصُحبة وفيه من الصدْق والأمانة مثله . وقد رأيت الناس يتوافدون عليه ويشترون منه ، ويَطْرَبون لحديثه ، أكثر مما يذهبون لغيره من التجار .

سَرحتْ خديجة بفكرها ، وراحتْ تفكر فى محمد وقد بدا لها فى صورة مشرقة ومضيئة .

كانت خديجةُ فى الأربعين من عمرها ، وكانت جميلةً وعاقلةً وثريةً ، وتوفى زوجها وترك لها مالاً كثيراً ، وعرض عليها أشراف قريش الزواج منها فرفضتْ . لم تجد فيمن تَقدَّم للزواج منها كُفْئاً لها .

لكنها الآن ترى فى محمد صفات الرجل الناضج الكامل ، والأكثر من ذلك أنها تُحبه .

دَخلتْ (نفيسةُ بنت مُنْية) على خديجة فى غرفتها فوجدتها على غير عادتها ساهمةً واجمةً . تفكر وتفكر ، وتنظر أمامها بأعينٍ حالمة كأنها لا تُبصر شيئاً .

قالت نفيسةُ متعجبةً : مالى أراك اليوم يا خديجةُ على غير عادتك؟ .

ـ هل أهمَّكِ أمرٌ؟

ـ نعم يا نفيسة . . أمرٌ مهم .

ـ خيراً . . هلاَّ أخبرتنى ما هو؟

ـ محمد .

ـ من؟! . . تقصدين الأمين؟

ـ نعم . . ماذا تعرفين عنه؟

ـ إنه من خيْرة شباب قريش خُلقاً وعقلاً وجمالاً ، وهو مشهورٌ بيننا بالصادق الأمين . . لكن حدثيني ، هل تفكرين فيه ؟

ـ نعم يا نفيسة ، أرغب فى الزواج من محمد . ولكن لا أدرى كيف أعرض هذا الأمر عليه؟ .

كانت نفيسة صديقةً مخلصةً ووفيةً للسيدة خديجة ، وكانت كل منهما تفضى الى الأخرى بما يساورها من هُموم ، أو ما ينتابها من مشاعر وأفكار .

وعندما سمعتْ نفيسةُ ذلك الكلام طارتْ من الفرحة وقالت لخديجة : دعينى وهذا الأمر . . ويصنع الله خيراً.

ثم تَوجَّهتْ إلى دار أبى طالب ، والتقتْ بالأمين هناك وقالت له :

ـ يا محمد . . أنت شاب ناضجٌ وعاقلٌ ، وتعمل الآن بالتجارة وتكسب . . فما الذى يمنعك من الزواج؟

قال : ما بيدى ما أتزوج به؟

قالت : إن كُفِيتَ ذلك ودُعِيتَ إلى الجَمال والمال والجاه ألا

تُجيب؟

قال : فمن هى؟

قالت : خديجة .

أجاب «الأمين» فى دهشة : ومن لى بذلك ؟

قالت : دع هذا الأمر علَّى .

وعادت نفيسة إلى خديجة وأخبرتها بأن محمداً يرحب بهذا الزواج . أرسلتْ خديجة ميسرة الى محمد يخبره بأن يحضر اليها لأمر مهم ، وجاء محمد فى الموعد المحدد ، ورحبتْ به خديجة وقالت :

يابن عم . . إنى رغبتُ فيك لقرابتك ، ومكانتك من قومك وأمانتك وحُسن خُلقك ، وصدق حديثك . .

وسُرَّ محمد من حديثها ، وشكرها على ثقتها به وتقديرها له ، وقال :

ـ ينبغى أن أشاور أعمامى فى الأمر ، ونُحدد موعداً يلتقى فيه أهلى وأهلك لإتمام الزواج .

قالت : نِعْمَ الرأى .

وفى الموعد المحدد ، ذهب محمد «الأمين» وعمه أبو طالب، وعمه حمزة بن عبد المطلب ، وبعض أشراف قريش الى دار خديجة ، حيث كان ينتظرهم هناك أهلها وفى مقدمتهم عمها «عمرو بن أسد» وابن عمها «ورقة بن نوفل » .

ـ لأن أباها كان قد توفى .

وأقيم حفل العرس، وخطب أبو طالب قائلاً :

«الحمد لله الذى جعلنا من ذُرية ابراهيم ، وزَرْع اسماعيل، وجعل لنا بيتاً مَحْجُوجاً وحَرماً آمناً، وجعلنا حُكَّام الناس . .

إن هذا ابن أخى محمد بن عبد الله، لا يُوزن به رجلٌ شرفاً ونُبْلاً وفَضْلاً، وإن كان فى المال قلّ ، فإن المال ظلٌ زائل، وقد خطب اليكم رغبةً فى كريمتكم خديجة، وقد جعل لها من الصَّداقِ عشرين من الإبل . »

فقام عمرو بن أسد وقال :

«اشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوجتُ خديجةَ بنت خويلد من محمد بن عبد الله»

وقام الرجال الى الوليمة التى كان قد أعدَّها محمد .

وبعد الطعام أمرتْ خديجةُ جواريها أن يرقصن ويغنين ويضربن بالدفوف .

وباركتْ قريش زواج محمد«الأمين» من سيدة قريش خديجة بنت خويلد .

عاش محمد مع زوجته خديجة حياةً وادعةً هانئةً مُستقرةً ، حَسَدهُ عليها شبابُ قريش ونظروا إليه بغبطة وإكْبار . فقد كانت خديجة تبادل زوجها حُباً بحب ، وعَطفاً بعطف ، وتحرص على إسعاده وراحته . وتولَّى محمد أمَور التجارة كلِّها ، وعمل على نمائها ونجاحها . فكانت تعودُ عليه كل مرةٍ بالربح الوفير ، والخير الجزيل ، فعاش محمد وزوجته فى رغدٍ من العيش وطيبات من الرزق أذهبتْ عنه هموم الفقر والحاجة ، وبدا عليه أثر النعمة ، دون ترف . ورزقه الله أولاداً حِسَاناً وبناتاً مثلُ الزهور عُذوبةً ورقَّةً وحُسناً . وكانت هذه الأُسرة فى مكة مثلاً رائعاً للمودة الصادقة والوفاء الكامل . وزاد هذا

الثراء محمداً جاهاً بين قريش ومكانةً فيها . لكنه كان دائم التأمل فى الكون والحياة ، والتفكير فى شئون الناس وأحوالهم، وكان يخلو كثيراً بنفسه، ويميل إلى العُزلة ويأنسُ بها ، ويُكثر من الصمت كأنه يُصغى الى نَغَمٍ شَجىّ .

وكانت خديجة تَعْجَبُ من حاله، وتحزن لكآبته وحُزنه ، ولكنها لم تشأ أن تُكدِّرَ صفوه بفضولها وسؤالها ولم تقطع عليه نشوة تفكيره .

لكنها كانت تتساءلُ بينها وبين نفسها ـ وهى التى لها من الذكاء حظٌ وافر :

ـ «ترى فيم تفكيره الدائم وصمته الطويل ؟ . . ما الذى يَشْغَلُ بالَهُ ويُقلقُ راحته؟! . .

أيكون ما أصابنا من مَوت ولَدَيْنا القاسم وعبد الله؟ . . لا أظن . . إن الموت كُتبَ علينا ، وكَرُّ الأيام يُنسى الإنسان الأسى والحزُن .

لابد أن شيئاً عظيماً هو الذى أهمَّهُ . إنه يحدثنى أحياناً عن ضلال القوم وفسادهم وعبادتهم لأوثان يصنعونها بأيديهم ، ويحدثنى عن

تناحرهم بسبب أشياء تافهة، كأنهم الحُمُر فى البرية ، وكان يحدثنى عن وهمهم وغَيِّهم . .

لابد أن هذه الأمور هى التى تشغل فكرهُ، وتُثير شَجَنه . لكَ اللهُ يا زوجى الحبيب، دائماً أنت رحيمٌ بقومك . »

ذات عام أصاب مكة سيلٌ جارف كسيل العَرِمِ ، فصدَّعَ جُدران الكعبة، وهدَّم بعض أركانها . فأجتمعتْ أشراف قريش فى الحرم للتشاور فى هذا الأمر . . . واتفقوا علي إعادة بنائها على أن تشارك فى ذلك قريش كلها .

وكانت ملحمةً كبُرى للبناء ، جَمعتْ القبائل من قريش الحجارة كل قبيلة كانت تجمع كوماً من الحجارة على حدة ، وكان أشراف مكة أيضاً يحملون الحجارة على أعناقهم ويجلبونها من الجبال المجاورة، وكان محمد ، وعمه العباس يحملان الحجارة مع القوم . كُلُ واحد يرى فى عمله شرفاً وواجباً .

وبدأ البناء . .

وجاء وَضْعُ الحجر الأسود فى مكانه ـ وهو حجرٌ مقدس له منزلةٌ كريمةٌ عند قريش ، واختلفتْ القبائلُ . . كل قبيلة تريد أن يكون لها شرف وضعه، وتصايحوا ، واختلفوا ، وكادت أن تنشب بينهم حرب فى الحرم. وهنا صاح فيهم أبو أُميَّة بن المُغيرة ـ وكان أكبرهم سناً وأرجحهمُ عقلاً وكان شريفاً مطَاعاً :

ـ يا معشر قريش . . لا تختلفوا ، وحكِّمُوا بينكم من تَرْضَون بحكمه .

نظر القوم بعضهم إلى بعض بحثاً عن رجل يرضون بحكمه، فلم يجدوا ، ولم يقفوا على واحد منهم.

فقال الشيخ : أرى أن يكون حكَماً أولُ رجل يدخل من باب الصفا .

قالوا : قبلنا .

وانتظروا جميعاً، وعيونهم على باب الصفا . .

وهنا دخل محمد فصاحوا فرحين : هذا الأمين . . رضينا به حكماً . . هذا محمد .

وسمع محمد منهم الخبر وعرف سبب الخلاف ، فقال : إئتونى بثوب فجاءوا بثوب ، فبسطه وقال : لتأخذ كل قبيلةٍ بطَرْفٍ من الثوب ثم وضع فيه الحجرَ بيده وقال : ارفعوا جميعاً .

فرفعوه جميعاً حتى انتهوا إلى موضعه . فأخذه محمد بيده ووضعه، وقال : أتموا البناء عليه .

ورَضِيتْ أشرافُ قُريش بما فعل الأمين، ونالتْ كُل قبيلة شَرف رفع الحجر الأسود، ثم عادوا لإتمام البناء ومُواصلة العمل .

وعاد محمد الى بيته قرير العين ، مُطمئنَ النفسِ ، وراح يحكى لزوجته خديجة ولبناته ما حَدَث فى الكعبة .

وتقول خديجةُ : نَزَعتَ فتيلَ الحرب يا أبا القاسم . . أعزَّك الله .

تمت بحمد الله